الرواية العراقية في ضوء ثقافة الإستهلاك

د. ضياء الثامري

الاستهلاك قد يعني "التلقي" او "القراءة" الغرض منه كسب ود القارئ (الآخر) وتلبية رغباته الثقافية المعاصرة، وبهذا فان جزئي النتاج الادبي (المبدع – المتلقي) تحولا وظيفياً خاصة اذا ما علمنا ان الابداع مرتبط اساساً بالتلقي، هذا المصطلح الذي يعتمد اساسا على المنظور الذاتي الذي يعد المنطلق والركيزة الاساسية لتحديد موضوعية الخطاب الذي لا يمكن ادراكه او تصوره خارج نطاق الذات المدركة وما المعنى الا خلاصة فهم المتلقي الفردي الخالص ،ولأن فاعلية الخطاب تعتمد على توقعات القارئ فإن المبدع يتلاعب في انتاج خطابه الابداعي معتمدا القصدية معياراً رئيساً فيه، فكما تتحقق متعة المبدع بممارسة العملية الابداعية، تتحقق كذلك متعة تلقي ذلك الابداع على حد قول رولان بارت ، كما ويرتبط مصطلح الاستهلاك بمصطلح آخر يدعى "الانتاج" وهذا بدوره يمكن ان يقترن بمدلولات اخر مثل "التكون" و"الابداع" و"الفعل" و"الكتابة" و"العمل"

اقترنت مرجعية الانتاج والاستهلاك بالفكر الماركسي وبالنظرية الرأسمالية على حد السواء وذلك حين ادعى كل واحد منهما انه يمكن ان يوظف جدلية (الانتاج والاستهلاك) في تخليص البشرية من معاناتها، وان الاثنين يندرجان تحت حقل الفعل، والكتابة فعل والقراءة فعل ايضاً الا ان لكل منهما خصوصية يتمتع بها، فضلا عن ان القراءة يمكن ان تشكل نوعا أخر من انواع الانتاج اذا احسن القارئ صنعا ، فهو يعيد انتاج الذي قرأه بشكل مختلف، لتصبح لدينا حلقة من التواصل الأدبي او الحواري المفتوح بين طرفي المعادلة المبدع والمتلقي، مع ملاحظة ان المتلقي عنصر مهم في ترويج هذه البضاعة كمستهلك، لذا يرى العالم الاجتماعي الامريكي ثور شتاين فيبلن في تمييز الهوية الطبقية عند الطبقة البرجوازية المترفة انما يكمن من خلال استهلاكها لا من خلال مهنتها ، فثقافة الاستهلاك هي ثقافة معرفية يتم من خلالها التعبير الحر عن ذوات المستهلكين في ظل القيود الشديدة في حياتهم اليومية بصرف النظر عن تمجيد الرأي او ادانته، لذا يعد الخطاب الاستهلاكي ثقافة الآخر وانفتاحيته على النتاجات الادبية ومن ثم الحكم على ايسرها والذها لديه قرائياً ، اي

ان فعل القراءة او مواصلة القارئ لقراءة انماط معينة محبذة لديه مرهون بمحتوى النص او الخطاب المكتوب او المرئي وبمعنى آخر ان ثقافة المستهلك ثقافة نقدية وآنية يتم تقريرها من خلال ثقافة الفرد/ القارئ وفقا لمعايير لذته، فكثيرا ما ظلت الكتابة تحتفظ بمتعة تخييل القارئ واكتشافاته واثارة التساؤلات حول تلك الكتابات، إلا ان هذه الكتابات سرعان ما تبددت لتحل محلها الكتابة المستنسخة كونها اقصر الطرق اشتهارا لكاتبها وذلك حينما يختار ثيماتها وبنياتها المستهلكة.

لقد انتهى العصر الذي يقول انا اكتب لنفسي او اكتب من اجل الكتابة نحن نكتب من اجل القراءة، فالقارئ المستهلك يفرض شروطه، غير ان المنتج يمارس خداعه عن طريق الإغراء والإغواء بوساطة وسائل كثيرة لجذب المستهلك وذلك عن طريق الاعلان كونه وسيلة مهمة من وسائل الترويج عن الاشياء، فإثارة الرغبات والغرائز الجنسية، والاقتصاد الزمني في طول الرواية، واعتماد الرواية تصويرياً(سينمائياً) وغيرها تعد من الوسائل المهمة للحفاظ على ثقافة الاستهلاك، فالروائي حريص على ادخال موضوعات الاثارة الجنسية او الفكرية او اختيار عوالم سحرية لجذب القارئ، والفلم السينمائي يوظف كثيرا من الموضوعات التي يعتني بها جمهور واسع من الناس، وكذلك المسرح والاغنية والفنون الاخرى.. فالجمهور يفرض سيطرته لكن المبدع يستعمل الخداع لجذبه بوساطة الكتابة التي تعتبر لعبة الانتاج والاستهلاك.

يؤمن ياوس بتزامن الكتابة والقراءة وذلك عندما تحدث عن العلاقة بين الانتاج والتلقي إذ لا يمكن لهذه العلاقة ان تتم الا بالانتحال ، حيث يمكن ان يعيش المنتحل زمنين في آن واحد: زمن القراءة وزمن الكتابة، فبوسعه ان يكتب دون ان يعاني قلق الفراغ، ويتبنى ياوس رأي كالفينو الذي يقصد ما هو ابعد من ذلك عندما عد النسخة المزورة ذات رفعة تفوق الاصل وبالتالي فهو منحها مشروعية ، وفي العصر الالكتروني يصبح المثل الرومانسي الاعلى للابداع الاصلي امرا خياليا ، ويصبح مفهوم الاصالة وهما وعبثا ، وخلاصة يمكن القول ان العصر الراهن هو عصر الرواية الاستهلاكية المُشاهدة عبر الشاشة، فهل استطاع المبدع (الروائي) ان

يمارس لعبة الابداع التأليفية ليتحول ابداعه الى إبداع استهلاكي عبر افادته من الثقافة الاستهلاكية؟ وسنحاول الاجابة عن هذا التساؤل البالغ الاهمية من خلال الوقوف على اهم آليات الخطاب الاستهلاكي .

اولاً : قصر المساحة الروائية، والتكثيف الوصفي فيها:

ينقسم عالمنا الى وحدات طبيعية وانسانية، قد تكون متساوية وقد لا تكون ومستقلة ومختلفة ومنفصلة ومنغلقة بسبب عدم وجود مركزية ومرجعية كلية مشتركة، وبالتالي فإن كل وحدة ذات سيادة مطلقة تكون مرجعية لذاتها، وهذا يعني غياب أية مرجعية نهائية انسانية او موضوعية، فالعالم يتسم بالتعددية والتفتت، والانقطاع والفوضى، وعدم المساواة أوالتساوي، وحكم المصادفة وغياب السببية، وظهور الاحتمالية والنسبية الكاملة والتغير الكامل والمستمر ومن ثم يصبح من العسير الوصول الى العالم ويمثل هذا الأمر إقراراً بوجود حقائق عائمة في فضاءات اللغة المعبرة عن خطاب عام او متفرد مما يؤدي القول بنسبية الحقيقة الموجودة اصلاً في تلك الخطابات وهي حقيقة الخطاب المستهلك كونه يستند الى معايير المستهلك من جانب، وكون المستهلك صاحب القرار في تحديد ثقافته من جانب اخر، ولاسيما اذا ما علمنا ان الخطاب العام المعاصر قد شهد تحولا ملحوظا لمصلحة القارئ لذا يرى دريدا استحالة معرفة الواقع خارج نطاق الخطاب المستخدم واستحالة التعبير عنه ،والنص ادبياً كان ام فلسفياً ، معبأ بالاستعارات التي تحجب الرؤية ، لذا كان اعتماد القصر في المساحة الروائية –المكتوبة – احد اهم منطلقات ذلك الخطاب كون القصر المصاحب للتكثيف الوصفي يساعد على استهلاك الرواية بصورة سريعة بصرف النظر عن انساقها البنائية المختلفة التي يعتمدها الراوي في سرد احداث روايته، فضلاً عن مميزات العصر الراهن المطالب بالاكتساب المعلوماتي لمجمل العلوم والخطابات الانسانية، الامر الذي يتطلب التكثيف الوصفي والاسراع السردي في الخطاب الروائي لآن السرد لا حدود له ، يتسع ليشمل مختلف الخطابات سواء كانت ادبية او غير ادبية يبدعه الانسان اينما وجد وحيثما كان ، ولا يمكن تحقيق هذه الصورة مهما اتسعت صفحات الرواية وتشتتت احداثها، إن العالم

اليوم يعتمد السرعة في إنجاز الأشياء، والقراءة بطبيعة الحال فعل يسعى إلى الإنجاز وبما أنه محاصر بماكنات الطباعة الحديثة فقد اتجه الى ما يمكن إنجازه بسرعة وعدم الحاجة للعودة إليه مرة أخرى، وعلى مستوى الرواية العراقية الآن أقول أن الكثير منها لا يحتاج الى القراءة مرة أخرى لأنها وقعت ضمن إطار الثقافة الاستهلاكية إما بسبب من موضوعها ،أو بسبب من عدم الحاجة الى تأمل كبير في التوصل الى خصائصها الفنية ، والأمثلة التي سوف أذكرها في هذا المجال إنما أردت من خلالها التدليل على ما أقوله هنا وليس في أي مجال آخر.

رواية "عيون في الحلم" للروائي عبد الرحمن مجيد الربيعي تقع في ثمان وخمسين صفحة وتتحدث عن ثلاثة اصدقاء هم: سالم ، ورشيد، ونوري، يعملون في التعليم ويقضون اوقاتهم في البارات ، والمقهى للعب الدومينو محاولة منهم للتخلص من البؤس الذي ينتابهم نتيجة الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي يعيشونها، فرشيد مولع بمغازلة النساء، ونوري يعيش عالمه الفني الخاص به من خلال رسم اللوحات الفنية، اما سالم فلقد عاش مأساة الحب مع "منى" التي اراد الزواج منها لولا المال الذي وقف حائلاً بين زواجهما الامر الذي جعله يقبل الانتقال الى مدرسة في الريف دونما تردد منه علَّ هذا الابتعاد ينسيه حبه لمنى وقبيل سفره استدعى "ليلى" الى منزله لتؤنسه ولتنسيه بعض آلامه ولكن دون جدوى، لأنه تمنى ان يكون جسدها جسد منى، ولما سافر اخذ يراسل حبيبته منى وصديقيه رشيد ونوري وعندما رجع ذهب الى منى وتبادل معها حديث الالم والحب والفراق متلقيا منها دعوة زواج صديقة لها من بغداد، ولبى الدعوة غير مبال بفترة انقطاعه عن المدرسة ولما عاد الى المدرسة أخذه رجال الشرطة

ان اعتماد الراوي نسق التتابع في رواية "عيون في الحلم" اعطاها صفة استهلاكية، ذلك لقصر مساحتها الروائية، ولتكثيفها الوصفي، واكتفائها السردي. فالقارئ يستطيع الاكتفاء بقراءتها مرة واحدة فقط ليدرك انها تمثل الحرمان والبؤس المادي الذي قاسته شخصياتها (رشيد، ونوري، وسالم) ليس إلا.ويمكن أن

نجد ذلك بكثرة عند العديد من كتابنا.الأمر الذي يخلق نوعا من الإستهلاك الرديء أو السلبي.

ثانياً : الثيمة

ان اهم ما يميز ثقافة الاستهلاك في الخطابات المعاصرة هو الثيمة القادرة على جذب العدد الأكبر من القراء لذلك تصدرت ثيمة الجنس غيرها في خطابنا الروائي وذلك لخصوبتها ، ولامتناع الكثير من المبدعين والنقاد من التعرض اليها الا بصورة رمزية كونها تتعارض ومرجعيات المجتمع حيث لم يستطع المثقف العراقي تخطي تلك المرجعيات رغم وجودها الصريح في ثقافته التراثية ،الا ان قسماً من المبدعين استطاع التحرر من قبضة المرجعيات وتناول ثيمة الجنس تناولاً رائعا مكَّن روايته من خلاله ان تستقطب اعداداً كبيرة من القرّاء. وبالتالي تحقق نوعا من الإستهلاك الجيد.

في رواية " الشاهدة والزنجي" يستلب الزوج المسن (حسون) حَقَّ زوجته (نجاة) التي تصغره بعشرين سنة الامر الذي جعلها تبحث عن ملاذ يقيها من الحرمان الجنسي الذي عانته معه فاتخذت لها عشيقا وقد اكتشف الزوج علاقتها بعد ان اصطحبها رجال الشرطة الامريكية من البستان الواقع بين منزلها ومعسكر الجيش الامريكي، وقد اغتصبت على يد رجل زنجي قام بقتل جندي امريكي ابيض، فطلب منها ان تكون شاهدة عليه الا انها التزمت الصمت ولم تدلِ بشهادتها ضد ذلك الزنجي خشية الفضيحة .

لم تختلف الثيمة في رواية "التشهي" لعالية ممدوح عن سابقتها فلقد اعتمد الراوي الجنس موضوعة اساسية فيها، اذ نلاحظ أعقاب أزمة "تقاعد" عضو سرمد برهان الدين الذكري حاول استيعاب ما حدث له، ليجد نفسه غارقاً في استعادة حياته الجنسية الماضية، بدءاً من تجربته الأولى مع الأستاذة الاسكتلندية في المعهد البريطاني في بغداد، فيونا لنتون الأربعينية الشبقة التي فقد معها عذريته بعد أن التقطَته وهو في بداية الشباب، وعلّمته معنى المضاجعة، وكيف يستنبت الشهوة من

مسافةٍ بين الصُّلب والترائب ، اذ يصف برهان لحظات مضاجعته فيونا البريطانية وهو في بغداد قائلاً: تحيا فيونا التي كانت تموت وتعود ما بين ساقي ومائي فتبتكر صرخات لم أسمع بها من قبل ... إنها تعيش في بقعتي العزيزة وينبغي أن لا نترجم ذلك حتي لا نفسده. ترقص وتلتهمني وأنا مغطى بالمني واللعاب، أو ها أنا أبجل المهبل والبظر واستحضر اسم الفرج باللهجات المحلية والعربية ... فاللغة أخطر وسيط في المضاجعة، أو كانت تجبرني على النظرِ كأحدِ القواعدِ لخديعة البصر ذاته فأصرخ بصوتٍ كالإعصار ادخليه سالمة ادخليه بأمان باللسان والشفتين والأنفاس والتقبيل والتقتيل بالأصابع والشموع والرطوبة والسعال والأنين والندى المباشرة والعذاب والجماع الناقص، ثم ضاجع كيتا الالمانية، والمغربية امينة الملقبة بـ "البيضاوية.

نلاحظ ان الثيمة الحقيقية في الروايتين هي الجنس وقد اتخذها الراوي مفردة اساسية في روايته فهي لا تقل اهمية عن غيرها من الموضوعات التي تمت الى الانسان بصلة كبيرة فهي وسيلة بقائه، وضالة سرمد الجنسية والسياسية محاولا تفريغ هذه المكبوتات من خلال الجنس الذي افصح عنه الراوي بصورة مباشر في رواية التشهي، اما نجاة فلقد اغتصبت للسبب نفسه اي بسبب الحرمان الجنسي مع زوجها الذي يكبرها بعشرين سنة، الامر الذي جعلها تتخذ عشيقا وتسلك طريقا لا يستبعد الاغتصاب فيه وهو البساتين الواقعة بالقرب من طريق المعسكر الامريكي دون شعورها بالندم على ذلك الاغتصاب ولكن المجتمع الذي كانت تعيش فيه اشعرها بالخجل، ولاسيما بعد ان قادتها الشرطة الامريكية الى سيارة الجيب التابعة لهم.

إن هذه الموضوعات تحقق رغبة عدد كبير من القراء يفوق ذلك الذي قد تحققه الموضوعات الفكرية أو الاجتماعية والسياسية التي تحتاج إلى تأمل.

خـــــــــــاتمة

إن النزعة الاستهلاكية قد تقوض أخلاقيات العمل ، وتؤجل الإشباع حيث أصبح كل شيء في عالمنا للبيع بشكل أو بآخر، فمشاهدة مباراة كرة القدم على شاشة التلفاز ، أو متابعة أحداث قصة أو فلم إنما تأتي محاطة بالإعلانات ،والراعي الرسمي وما إلى ذلك ، في تصوري أن النزعة الاستهلاكية في الأدب ترتبط ارتباطا وثيقا بالرغبة ، رغبة القارئ في إشباع الذات ، وبما أن القارئ الآن يعيش حالة من الإستهلاك التي تشير في كثير من جوانبها الى محاولة تعويض النقص في نوعية الحياة فإن قراءة الأدب لا تخرج عن هذا الفهم ، يوضح أندريه شيفرين في كتاباته عن استهلاك الأدب أن خيارا واسعاً من الأعمال الجادة التي كانت متاحة بشكل كبير ، وتقرأ على نطاق واسع في القرن التاسع عشر أصبح من الصعب العثور عليها الآن ، لقد كان هم دور النشر الأساسي هو تقديم الأعمال الجديدة والبارعة جدا للجمهور (المقصود هنا الجمهور العريض وليس النخبوي) ، أما اليوم فإن القيم الثقافية والفكرية فقد تم استبدالها بقيم السوق ، وبالتالي صار التوجه الى كمية البيع التي تقوم على تكرار المباع ، عبر إعادة إنتاجه بمسميات أخرى ، وهذا واضح جدا في الرواية العراقية ، فبعد عام ٢٠٠٣ أصبحت موضوعات الصراع ، وتناحر الهويات ، والجماعات والأقليات هي الثيمات المهيمنة في نوع من المخاتلة الفنية التي تستغل رغبة القارئ في قراءة المسكوت عنه قبل ذلك التاريخ ، وقد لا نغالي إذا ما قلنا أن العدد الكبير من روائيينا المعاصرين لم يكتبوا روايتهم بعد ، وإنما كتبوا سيرتهم في أحيان ، أو أعادوا تدوين ما كتبه غيرهم في أحيان أخرى ، وإن تعددت عنوانان أغلفة كتبهم ،بل حتى الجوائز الأدبية صارت تشجع على هذا النوع من السلوك الثقافي ، ولانريد هنا أن نتحدث عن معايير الفوز من عدمه ولكننا نؤشر حالة من التواطؤ على مستوى الموضوعات بين معظم من رشح للفوز أو فاز.

يقول شيفرين إن الكتب قد أصبحت مثل البضائع الجافة على الرفوف ، وإن اتخاذ قرار بشأن كتاب يتم الآن بشكل أساسي وفقا لأبسط المعايير ، والسؤال ليس هو هل

هذا الكتاب شيق وجديد ، ولكن السؤال هل هو تجاري أو شعبي ، وليقارن أي روائي من روائيينا الكبار الحاضرين مبيعات كتبه بمبيعات كتاب آخر ينسب الى الفن القصصي ولكنه جاء بتوقيع كاتب باسم من الأسماء ذات الصبغة (الراهنة).

إن القراءة تجديد للذات القارئة ، وهي كالاغتراب أو السفر (اغتراب تجدد) ، ولا استقرار لهذا التجديد ولكل قارئ أفق ، وهو يسهم في أفق النص ، ولذلك فهو يتورط في فعل القراءة ، ويعيش حياة شخصيات الرواية ويتماشى معها ، ثم أن قراءة العمل الروائي غير مشاهدته فلما، ففي القراءة تنشط الذاكرة في رسم الشخصيات في حين تتوقف هذه الذاكرة أو تكاد حين تتجسد هذه الشخصيات في شخصيات نعرفها ، أو أن يقدم الفعل الروائي بشكل طبيعي بسبب من عدم وجود مانع اجتماعي أو أخلاقي ، ولذلك يبقى استهلاك الرواية التي تحقق رغبات شريحة القراء في ما لا يتحقق بالمشاهدة هو الأعلى ، ثم أن القراءة تعيدنا إلى عالم الطفولة والتخيل والأحلام ، فنقبل بالوهم ، القراءة هنا شهوة طفولية لاتكر نفسها .